الرواية فى المغرب

"ثقل العالم" والوضع العربى

إذا كانت الرواية فى السنوات الأخيرة قد أصبحت بالحق هى ديوان العرب، فإن الكم لا شك يلعب دورًا فى تحديد هذه الصفة، حيث أصبح عدد الروائيين فى العالم العربى فى تزايد مطرد.

وما دام الحديث هنا عن الرواية المغربية، فإن الدراسة الببليوغرافية التى يقدمها د. جميل حمداوي[1]، والذى يعد أحد أهم دارسى ومنظرى الأدب فى المغرب، حول إقليم واحد من أقاليم المملكة المغربية لشاهد على هذا الزخم الدال حيث نجد: (وقد أنتجت المنطقة أكثر من ثلاثة وأربعين (٤٣) نصًا روائيًا لتسع وعشرين روائيًا (٢٩) منذ العقود الأخيرة من القرن العشرين وبداية العقد الأول من هذا القرن)، بل نجد فى هذا العقد الأول من هذا القرن، الذى لم يصل نهايته بعد – والذى هو محل دراساتنا فى الوقت الحالى قد وصل إلى واحد وعشرين نصًا روائيًا فى هذا الإقليم فقط.

كما قد يلقى بعض الضوء أيضًا (من حيث الكم) ما ساقه د خاليد الورديغى فى دراسته حول الرواية المغربية على مدار العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين:

الفترة عدد النصوص الروائية الصادرة

---

(1) أنماط الكتابة الروائية ومميزاتها الدلالية والفنية فى المغرب الشرقى / د. جميل حمداوى موقع الورشة الثقافى ٢٨ / ٤ / ٢٠٠٧.

١٩٧٠ - ١٩٧٩: ثلاثة وعشرون نصًا روائيًا.

١٩٨٠ – ١٩٨٩: تسعة وستون نصًا روائيًا.

١٩٩٠ – ١٩٩٩: مائة وخمسة وأربعون نصًا روائيًا[1]

الأمر الذى يوضح الإقبال المطرد على الكتابة الروائية فى المغرب العربى والوطن العربى عامة.

وإذا كان هذا من حيث الكم، فإن أحد أبرز كتاب الرواية المغربية وهو الروائى بهاء الطود، يوضح لنا لماذا هذا الاهتمام بالرواية دون سواها[2]:

(❖❖ اكتشفت بعد كتابة الخاطرة والمقالة والقصة القصيرة، أن التعبير السردى الروائى أقرب إلىَّ من أى شكل تعبير آخر، وأن الرواية هى الأقدر كشفًا عما يجيش به صدرى من قلق ومشاعر وأحلام، كما أن قسماتى النفسية من أساسها وجذورها تتمثل فى الرؤية الكلية الشاملة للأشياء، والنفاذ إلى الأشياء الصغيرة والتفاصيل الدقيقة والميكروسكوبية التى هى مادة الرواية وجوهرها ❖❖). ومن هذا المنطلق أصبحت الرواية فى المغرب أيضًا، هى الوسيلة التى بها يستطيع الكاتب أن أن يبعث برسالته، مضمنًا إياها همومه وهموم وطنه وأمته وعالمه.

وفى العقد الأول من هذا القرن الواحد والعشرين استطاعت الرواية العربية عامة والمغربية منها، أن تثبت أنها الفاعل الأدبى الأول، الصارخ بآلام أبناء هذا العالم العربى المبتلى، المواجه لحكام وحكومات شاخت فى مقاعدها وتمترست فى قواعدها المحصنة ضد شعوبها، والمحركة لجبال الصمت الراكد الرازح

---

(1) د. خالد الوردیغی: مسارات تكون النص الروائى المغربى.

(2) حوار مع الروائى المغربى بهاء الطود – القدس العربى.

على صدور شعوبها، داعية للحركة والفعل والتخلى عن تلك السبية البغيضة. لا يختلف فى هذا الرواية السورية عن الرواية المصرية، أو الرواية السعودية عن الرواية المغربية.

فإذا كانت الرواية المصرية فى هذا العقد، قد نزعت الستائر المغلفة لما تريده من رسائل، وأخذت زمام المكاشفة والمواجهة المباشرة متخذة من الواقع المعيش بكل ما فيه من فجاجة وقبح، وسيلة لحمل رسالتها. فإن الرواية السورية – وفقًا للظروف السياسية، راحت تبحث عن البطل المخلص، والمنقذ من واقع أشد قسوة وسطوة. وانفجرت ثورة الحريم فى السعودية لتنزع حجاب الكبت والرضوخ والاستسلام فى الحرملك. وها هى الرواية المغربية تنزع نحو الهروب من واقع أليم داعية إلى مواجهة حتمية، ولتعلن عن الرغبة فى تكسير القيود وتحطيم الأسوار، سعيًا نحو استنشاق هواء الحرية المعيد للحياة. فيسعى "سعيد بوكرامي" بعد ثلاث مجموعات قصصية وعدة كتب نقدية، لتقديم رؤيته ورغبته فى التغيير من خلال باكورة أعماله الروائية "ثقل العالم"[1] ذلك العنوان الذى يضع أمامنا علامتى تعجب واستفهام – مؤقتًا – حيث يبدو العنوان غير دال للوهلة الأولى، الأمر الذى يجعلنا نتساق للإيحاءات المباشرة التى يدعونا إليها هذا العنوان، والذى نرى معه أنه كلما ازداد الثقل على كاهل الإنسان، زاد إحساسه بالضغط، وعلا أنينه وبح صوته، فيحاول التخفيف عن نفسه بنفض هذا الثقل، أو محاولة التخفيف منها. إما بنفضها أو محاولة الهروب منها – رغم سلبية الفعل –.

وإذا كانت المؤشرات توضح تنامى حالات الانتحار فى العالم، كنوع من الهروب، أمام سطوة مستجدات العالم الضاغطة عليه،

---

(1) اعتمادًا على النص المنشور بالعدد ١٢ من مجلة الكلمة (مجلة أدبية فكرية شهرية فى لندن) فى ١ / ١٢ / ٢٠٠٧.

والقاضية على ما تبقى من خصوصيته وحريته، حتى أصبح الإنسان فى سجن بلا جدران، فإن هذا الحل لا يصلح فى عالمنا العربى الذى يعتبر الانتحار نوع من الكفر، فهل يهرب الإنسان العربى من جحيم الحياة الدنيا ليلقى بنفسه فى جحيم الآخرة؟ إذن عليه بنوع آخر، ربما كان نوعًا آخر من الهروب، هو الهروب للمواجهة.

ولقد وجد سعيد بوكرامى وسيلة أخرى للهروب، لا يقع فيها الإنسان فى المعصية أو الكفر، فى الوقت الذى يسمح له بحرية أكبر، ربما تصل إلى الحرية المطلقة، تلك هى حالة الجنون. أو فقدان العقل، مشيرًا بها كذلك إلى أن ما يقع للإنسان العربى فى الوقت الحالى، لابد يؤدى به إلى مستشفى الأمراض العصبية والعقلية، فتكون الحالة التى يقدم شخصيته الرئيسة فى الرواية متفقة فى داخل الرواية مع خارجها، فى الواقع المعاش.

فى "ثقل العالم" يبدأ سعيد بوكرامى بفقرتين مستعارتين، وعندما يستعين الكاتب بعبارة من خارج النص، فإنه بالضرورة لا يأتى بها مجانيًا، وإنما بها يضئ شمعة يسلطها على نصه، حيث تعتبر أحد عتبات النص كما يقال، عل القارئ بها يستضئ للكشف عما بالنص ذاته.

تأتى الفقرة الأولى من "يوميات كافكا، ذلك الذى تميز بعوالمه الفنتازية الخارجة عن قواعد الواقع الروتينى المألوف، لتخلق عوالم أكثر حرية فى التصرف والحركة – إلى جانب استمرارية تواجد فعل الدهشة التى هى من أولى عناصر الإبداع – حيث يقول "لكن أن يحوم حول رءوسهم غراب خفى مثلما يحدث معى، فهذا ما لم أتخيله" فسعيد بوكرامى – مع كافكا – يحوم فوق رأسه غراب، وما أن يسمع الإنسان مجرد اسم الغراب حتى يتبادر لذهنه اللون الأسود والخراب والنعيق، وتحيطه نذر الشؤم والخوف

والترقب، الأمر الذى يضعنا منذ البداية فى حالة من القلق والريبة والتوجس وتوقع ما ليس بمستحب. ليس فيما يلى من أحداث روايته فقط، وإنما ما تعكسه الرواية بالضرورة على أيامنا القادمة أيضًا.

ثم يجتزء الروائى عن "خوان غويتيصولو" مقتطفًا ليس بالشمعة، وإنما بالمصباح الضخم يسلطه على ما يليه من أحداث روايته، وواقعنا الأليم "فى ظروف مثل هذه التى أصبحت فيها محرومًا منذ أسابيع من نعمة الحرية.." وكأنى بسعيد بوكرامى يزعق من وراء السطور، أن يا أيها العالم إننى منذ أسابيع – وهو بالطبع لا يعنى الأسابيع تحديدًا، وإنما السنوات – وأنا محروم من نعمة الحرية، وعليه فى هذا الحبس لا أن يواجه نفسه فقط، وإنما أن "يجابه الحدود التى فرضتها السلطات (الطبية)" وبالطبع لا يخفى علينا رغبته فى توسيع هذه السلطات وعمد حصرها فى فقط (الطبية). ثم "دون انتظار مساعدة من أحد" فالحرية تنتزع، ولا تمنح، (وما حك جلدك مثل ظفرك) فعليك وحدك يقع عبء حصولك على حريتك، دون مساعدة من أحد، أيًا كان.

تتفق "ثقل العالم" مع الرواية المصرية فى القرن الجديد، ومع الرواية العالمية عمومًا، من حيث إختفاء الخط الدرامى المتصاعد الذى معه قد تغيب القصة بمعناها التقليدى، وتصبح الرواية لوحة بانورامية واسعة، تسع الوطن ككل، وربما العالم كله.

فإذا بحثنا عن خط محدد لثقل العالم، فلن نجد، فقط يفتح المشهد على الراوى فى عيادة الأمراض النفسية، ليقدم لنا الراوى نتفًا مما فيها، ولنتعرف على موت الأب وتفتته على أسفلت الشارع (فيما يعنى موت الماضى)، يضاف إليه هجر الزوجة "نزهة"، والتى تعنى بشكل آخر ضياع الاستقرار والحياة العادية، فضلاً عن ما يمكن أن يحمله الاسم من دلالة. ثم يقدم هذا القسم نماذج من

الفساد وخربة الضمير، وتبدل الأحوال الاجتماعية إلى الأسوأ – متفقة فى ذلك مع العديد من نماذج الرواية المصرية فى القرن الجديد، حتى يصل إلى تحديد منطقة وسط البلد – التى تعدد استخدامها أيضًا فى الرواية المصرية – للدلالة على فساد المجتمع ككل، وليصل إلى توسيع القاعدة حتى يربط الفساد والخراب بسلوك الحكام والساسة جميعًا {أخرجتنى يد تطبطب فوق كتفى من نادى الرؤساء الفاسدين وأنا غير نادم على ذلك، فنتائجهم تشبه نتائج الفساد فى العالم العربى.}.

ثم يسدل الستار فى حديقة مستشفى الأمراض العقلية والراوى يشهد زوجته المفترضة، وابنه المفترض، وهو يخرج من البوابة إلى اللاوِجهة، فى طريقه للضياع أيضًا (وكأن الكاتب أراد ضياع المستقبل، أو ركضه فى اللااتجاه، وهو ما يعنى ضياع المستقبل أيضًا، (طالما لم تتحدد خطة المستقبل).ولتسير أحداث الرواية – إن كان بها أحداث فى البحث عن (طريق المستقبل)، وليصبح الشكل فى الرواية هو البطل الحقيقى، وبدلاً من كونه – الشكل - حامل الرسالة - فى الرواية التقليدية - يصبح هو الرسالة ذاتها.

فكيف كان ذلك:

ثم تنقسم الرواية إلى قسمين. جعل القسم الأول فيها ما يمكن تسميته (القسم النظرى أو الاستاتيكى) وربما يصلح أيضًا تسميته بالقسم الواقعى، حيث يبدأ به من أرض الواقع من العيادة النفسية.

والقسم الثانى وهو ما يمكن تسميته بالقسم الفانتازى أو القسم العملى، والذى فيه يحدث الفعل المتخيل، أو المرتجى، وهو الركض ضد، أو المواجهة مع.....

حيث نتعرف فى القسم الأول على ما يعتبر التمهيد، والتحديد للرسالة المرجوة من العمل.

وفيه يتم تحديد خطوط الرواية بالاستعارة أو الاستعانة بأقوال من خارج النص، ويأتى هذه المرة من كونفشيوس، تلك التى تقول (أقولها بلا تردد يمكنك أن تركض فى الاتجاه الذى تريد، وفى المكان الذى تريد) وكأنه يؤكد أنه عندما تريد، فإن أحدًا لن يستطيع الوقوف أمامك، فقط عليك أن تتحرك أن تركض، ثم (ولكن ألا يعتبر الركض بلا اتجاه نوعًا من الهروب من المسئوليات؟ ولِمَ لا تكون المواجهة أجمل ما فى الحياة؟).

وليخرج الكاتب الهم من الخاص إلى العام، حيث الأمر لا يخصه فقط، وإنما هى قضية أمة، يعود بعد ذلك ليؤكد {بداية للتدهور الذى صاحب سكان مدينتى بأغلبهم إلى مستشفى الحمقى والمخبولين..} ، فليس وحده الذى يعانى القهر والمرض، وإنما هى الذات الجمعية.

وفى القسم الثانى، يتحول السرد إلى الأسلوب الفانتستيك، حيث لا قواعد منطقية تحكم الفعل، وإنما تدور الكائنات (ولا أقول الشخوص) والأشياء خارج حدود الزمن، وخارج حدود المكان، ففى الطابور، وفى انتظار الدور المؤدى إلى طريق المستقبل، يتزوج الشاب بطريقة فانتاستيكية أيضًا، وتحمل الزوجة، بينما يقفان فى الطابور لم يبرحاه.

فإذا ما نظرنا إلى القسم الأول ودوره فى العمل، فهو البحث ومحاولة فهم ما يجرى فى العالم العربى من حولنا، حكام فاسدون، أدى إلى ذمم خربة وفساد عم فى كل مناحى الحياة، وكل ذلك جعل من الأرض العربية مناخًا صالحًا للغزو الأمريكى، أو النظام الجديد أن يأتى ويسيطر، يحكم ويتحكم. فكانت

النتيجة – فى القسم الثانى – هى التشتت والضياع، وفقدان المنطق والعقل. إذ الفعل هنا تم على قسمين، هما ما لجأ إليهما سعيد بوكرامى فى تحديد مسار الحركة فى الرواية.

الراوى والرؤية

من الطبيعى جدًا أن تأتى الرواية الأولى للكثيرين، مروية بضمير المتكلم، إذ يكون الكاتب فى هذه المرحلة مشحونًا لم يزل برغبة البوح، شاعرًا بأن لديه ما يود قوله، فيتقمص دور الراوى الذى يرغب فى إخبار العالم بفتحه غير المسبوق، أو برؤيته التى يراها بالقطع هى الأصوب. فضلاً عن كون العمل الأول – غالبًا – ما يكون فيه الكاتب – فى بداية تعامله مع الرواية – لم يتمكن بعد من القدرة على إلباس عباءته للغير، أو التخلى عن ذاته للغير. فتأتى الرواية الأولى فى أغلبها ذات اتجاه واحد، لا تملك التشعيب والتعقيد – دون أن يمنع ذلك وجود الاستثناءات – بمعنى أن تكون الحبكة فى أبسط أشكالها. ولا يعنى هذا بالطبع التقليل من قيمة العمل الأول – والذى نضع عليه آمالاً كبارًا، لكنا فقط نحدد الملامح العامة التى تبين فى غالبية العمل الأول، الذى درجنا على دراسته فى العالم العربى.

ولا شك أن "ثقل العالم" وهى الرواية الأولى لسعيد بوكرامى، ينطبق عليها الكثير من هذه الصفات، فالراوى هنا يروى تجربته المتخيلة بضمير المتكلم، الذى جاء أكثر توفيقًا مما لو استعمل أى من الضمائر الأخرى. فالمحكى الفانتاستيكى الذى جاءت عليه الرواية، أكثر التصاقًا بالذات، وأقدر على اقتحام الداخل، ذلك الداخل الحامل للرؤيا التى يسعى الكاتب للكشف عنها، وهى الواقع المؤلم والسوداوى للعالم العربى، والذى لا يحمل أى شمعة فى نهاية الطريق

{خرجت فوجدتنى أسير فى نفس الزقاق الذى كنت أعبره منذ خمسين عامًا} {لكن الغريب أن الأرض انخسفت تحتى متداعية ببطء كما الرمال المتزحزحة. كان النفق الدوار أشبه بحلبة تزحلق. وبسرعة خاطفة كنت فى مكان بعيد أى فى طرف آخر. لا أعرف بالتحديد الزمن والمسافة التى استغرقها السقوط. لكن الوصول إلى تلك العتمة الباردة كان كافيًا بوضع حد لهذه الحكاية.}.

ثقل العالم ورواية القرن الجديد

قد يكون من التعسف بناء دراسة حول الرواية المغربية عامة من خلال عمل واحد لكاتب واحد، إلا أن عدم توافر النصوص بالشروط التى ألزمنا بها أنفسنا (الرواية الأولى الصادرة فى القرن الجديد) وضعت الكثير من الصعوبات أمام الوصول إلى المبتغى. غير أن "ثقل العالم" توافر لها الكثير من المميزات العامة التى توصلنا إليها كعناصر لهذه الدراسة. منها:

١ – عودة الرواية إلى الواقعية من جديد، غير أنها ليست الواقعية المحاكية للواقع، أو القائمة على وصف الواقع وتحليله دون رؤية للمستقبل ولكنها الواقعية المتخيلة – إن صح التعبير – الحاوية للمنظور المستقبلى، الواقعية القائمة على التخييل الفنى، الكاشفة لما تحت السطح. المعبرة عن أنين الشعوب العربية الواقعة تحت سطوة الكبت، الباحثة عن الحرية والديمقراطية.

٢ – غياب الحبكة الفنية التقليدية، بغياب الحدث الجامع أو (الحدوتة) القائمة على التصاعد الزمنى المنطقى، مستعيضة عنه بالشرائح العرضية من صور المجتمع العربى (كل فى قطره). والتى تشكل فى نهايتها رؤية كلية نابعة من منظور فردى، ومنطلقة للمنظور الجمعى. والتى ينبع منها:

٣ – قيام الشكل بدور المضمون، حيث أصبح الشكل هو الرسالة المرادة من العمل الروائى. على نحو ما رأينا فى - ثقل العالم – من مقدمات غير منطقية، ضاغطة على نفس الفرد فأدت به إلى مستشفى الأمراض العقلية، أدت بدورها إلى جزء كامل من العمل فانتازى غير منطقى.

٤ – الاعتماد على العمارة للدلالة على تغير المجتمع، تركيزًا على وسط المدينة باعتباره القلب من المدينة كلها، وإن وضح هذا فى العديد من الروايات المصرية – محل الدراسة – فإن رواية "ثقل العالم" لم تخل من هذه الظاهرة أيضًا {... تغير وسط المدينة كثيرًا عمارات متنوعة تمخر عباب السماء فى بضعة أشهر أعرف أن أغلب هذه العمارات بناؤها مغشوش ومشبوه بعدة تجاوزات لكن ما العمل؟}

٥ – اعتماد بنية الرواية – عامة وثقل العالم خصوصًا – على السرد القائم على الرؤية المصاحبة مع، أو ما يسمى بالتبئير الذاتى، أو التبئير من نقطة الصفر، اعتمادًا على استخدام صيغة السارد العليم بكل شئ، والمحرك لكل شخوص الرواية على قلتها.